

ممثّلو روح الفتوة

سؤال: للفتوة تعاريف شتّى منذ قديم الزمان، فما معناها، وعلى من يُطلق "الفتى" في ضوء ظروفنا الراهنة؟

الجواب: الفتوة لغة: الشباب، وهي مشتقة من الجذر "ف ت ي"؛ واصطلاحاً: تشبّع القلب بالإيمان الكامل، وحسنُ معاملة الناس كلهم، ونذر العمر من أجل الآخرين، وأداء المرء مهامه دون أن يرى نفسه متميّزاً، وبذل كل التضحيات في سبيل القيم المقدسة، وانتظار ما له أجل مسمى والصبر عليه صبراً يبلغ حدّ الجنون كصبر الدجاجة حتى تفقس بيضها، والثورة على كل المساوئ والشُرور مع مراعاة العصر والزمان الذي نعيش فيه، ودون إهمال العقل والمنطق، والثبات وعدم الفزع من الأذى والمشقة التي تنتج عن كل ما ذكرنا.

رُوي في الأثر: "لَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ وَلَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَّار"^(١٤)

يشير هذا إلى أن سيدنا عليّاً كرم الله وجهه بطلٌ يمثل الفتوة بكل معانيها؛ والحقّ أن الفتوة تمتد إلى ما قبل سيدنا علي عليه السلام بكثير، فلنا أن نعدّ كلّاً من الأنبياء العظام ممثلاً حقيقياً للفتوة في أعلى مستوياتها لأنهم أفنوا حياتهم في سبيل رسالاتهم، ورغم أنّ منهم من لم يتبعه إلا بضعة أشخاص ومنهم من لم يتبعه أحد إلا أنهم مضوا في دعوتهم ولم يفتروا.

تَرْقُبُ النَتِيجَةَ مِنَ اللَّهِ ﷻ فَحَسَبْ

إن الأنبياء العظام ﷺ أدّوا رسالتهم على أكمل وجه، وواصلوا أداءها بوعى وفطنة في ضوء الأوامر التكوينية، وتصرفوا في كلِّ حال بحكمة بالغة، ومع ذلك كله لم يترقبوا النتيجة إلا من الله ﷻ، وهذا بعدُّ آخر من أبعاد الفتوة.

أجل، إن تحرَّق المرء شوقاً وعشقاً في البداية لأداء الواجب، ثم اطمئنَّاه في النهاية إلى أنه قد قام بواجبه، كلاهما معاً مؤشِّر مهم على روح الفتوة؛ وبتعبير آخر: ثمة أمر شديد الأهمية في خدمة الإيمان والقرآن، ألا وهو أن يَشْغَلَ عقلَ المرء على الدوام -وهو يقوم بمهمة الإرشاد والتبليغ- أن "الحمد لله أنني امثلتُ أمر ربي وإن لم يتبني أحد، وله الحمد أنه لم يحرمني من تبليغ هذه الرسالة"، وأن يمضي في مهمته بلا خنوع ولا انكسار ولا يأس ولا قنوط.

لقد قام الممثلون الحقيقيون لروح الفتوة على مدار التاريخ بتبليغ رسالتهم حتى عندما أُشْهِرت لهم المقاصل، فلم يعبؤوا بقمع السادة والكبراء واضطهادهم، واستخفوا بالحياة ومضوا في طريقهم؛ فهذا عيسى عليه السلام لم يتوانَ قط في التضحية بروحه في سبيل رسالته رغم ظلم الرومان وقمعهم، ومحاولة طائفة التنكيل به وتأليب الرومان عليه؛ ثم وجَّه نظره إلى العالم الآخر وارتقى إلى مرتبة حياتية مختلفة؛ فيمكن أن يقال: إن الفتوة التي كان يمثلها عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كانت مرقاةً لرقبته إلى الأفق الذي هو فيه الآن.

وفي قصة سورة الكهف حول رحلة موسى عليه السلام وفتاه ولقائه بالخضر بعدُّ آخر للفتوة؛ فهذه القصة تشير إلى بعد من أهم أبعاد الفتوة وهو

الخروج من سجن قوالب الطبيعة الضيقة والانفتاح على رحابة ما وراء الطبيعة للرقي إلى مستوى حياة القلب والروح، ثم التطواف باستمرار في هذا المدار؛ وإن كانت الجسمانية تستمرّ بقدر الحاجة ولا تنعدم جذرياً في مثل هذا المستوى من الحياة إلا أن الرغبات والأهواء تتقهقر في سلم أولويات المرء؛ ولمثل هذه القصص دلالات مهمة منها أن على المؤمنين ألا يكتفوا بعلوم الظاهر فحسب، بل عليهم طلب العلم اللدني باستثمار عوالم قلوبهم وأرواحهم.

الفتوة والتفاني

من أهم مقومات الفتوة أن يتحلّى المرء بروح التفاني؛ أي أن ينذر نفسه لغايته المثلى، وي طرح ما سواها، وعلى الروح المتفانية أن تقول: إن وظيفتي الحقيقية هي إعلاء كلمة الله والسعي الدؤوب لتحقيق هذا الهدف المنشود. والحق أن كلمة الله في نفسها عالية كما أسلفنا مراراً، ولكن لا بد من بذل الجهد ليسمعها العالم كله؛ فعلى من تفانى في سبيل غايته المثلى أن يهرول وراء هذه الغاية بمشاعره وأفكاره وسلوكه وأفعاله كلّها، وأن يتضرع إلى الله تعالى أن يثبته على هذا الأمر؛ لا بدّ لمثل هذا الإنسان أن يفيض قلبه بالرغبة في إحياء الآخرين حتى ينسى -وهو على ذلك- طريق بيته ووجوه أولاده، إلا أن علينا أن نذكر أن من أسس الخدمة الإيمانية أداء المرء لما عليه تجاه أولاده وأبويه وكل من لهم حق عليه.

الفتوة والثبات

ومثل التفاني في الأهمية في هذا المقام الثبات والشموخ، فعلى المرء أن يثبت حيث هو، ويقول كما قال "إبراهيم تنوري"^(١٥):

(١٥) إبراهيم تنوري (ت ١٤٨٢هـ/١٩٦٢م): شاعر صوفي، له دواوين شعر منها: "كولزار معنوي (حديقة الورد المعنوية)"، و"كولشن نياز (بستان النضر)".

ما أعذب البلاء إن كان من جلاله

وما أحلى الوفاء إن كان من جماله

ففي الجمال لطفه وقهره سواء

ونقصد بالشموخ ألا يُصاب المرء بالذعر فيتداعى ويسقط، وألا يتخلى عن رسالته مطلقاً مهما كلفه الأمر، وإلا فالأجدر بالمؤمن أن ينحني كعلامة الاستفهام بين يدي ربه ﷻ، بل ويخرّ على وجهه ساجداً، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فلنميز بين هذين الأمرين.

الفتوة الحقيقية هي الفناء عن الذات

أهم سمة لا بد أن يتميز بها من نذروا أنفسهم لحركة المتطوعين هي ألا يروا أنفسهم متميزين رغم أدائهم المتميز.

فإذا ما اطلع المراقبون على ما يبذلون من تضحيات فلربما يقولون: "قليل في هؤلاء وصفهم بـ"المثاليين"؛ لأن لهم عمقاً معنوياً خاصاً لو مُزّق أحدهم أشلاء وُضع المنشار على رأسه فجعل نصفين، ومُشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فلن يصرفه ذلك عن رسالته؛ ورغم كل هذه التضحيات عليهم أن ينقشوا في أرواحهم أنهم لا يتميزون عن غيرهم بشيء، بل لا ينبغي أن يردّهم هذا الخاطر، فإن مر بهم خاطر كهذا قسراً فليهرعوا إلى سجادة التوبة فوراً وكأنهم اقترفوا أمراً عظيماً؛ أما ما يجري على أيديهم من جماليات فيرون أنها جميعاً نتاج لتفتُّح أزاهير بذور ألقاها من كانوا قبلهم، ثم غدت براعم تنمو وتزهر، فسنبال في كل سنبلة منها ألف حبة، فهذه الجماليات ناجمة عن صدق سلفنا وإخلاصهم في جهدهم وسعيهم، وشاء الله أن يوافق عصرنا وقت العناية بتلك البذور وعزق الأرض وتعهدها بالتنقية والنظافة لتغدو هذه الفسائل أشجاراً تُثمر؛

فأنى لنا أن ننسب لأنفسنا كلّ هذه الجماليات؟! إنه لبخس لحقّ سلفنا ووقاحة وصفاقة بين يدي الله تعالى.

ولا عبرة في مقام الفتوة بالعمر أو المقام أو المنصب أو الخبرة؛ فقد يتوهم الإنسان أن له ميزةً على غيره لإقبال الناس عليه لعمره أو مقامه أو منصبه أو خبرته، والحقّ أن توقير من بدأ حمل هذه المهمة قبل غيره هو مقتضى الأدب والتناغم بين السابق واللاحق؛ أجل، إن من وسائل تحقيق التوازن والتناغم بين الأفراد احترام الصغار للكبار وحسن الظنّ بهم بشرط أن يكون دون مغالاة أو مبالغة، ودون الدخول في أنانية الجماعة الأمر الذي ينفر الآخرين؛ وليعلم أنّه إن لم يتحقق من نوّقرهم بالفناء عن الذات، وإن لم يدربوا أنفسهم على أن يروها "صِفراً" فقد تساورهم الأوهام والادعاءات ويعشقون المناصب المعنوية التي وهبها لهم من أحسن الظنّ بهم، فرب قائل: "قد بلغت من العمر الستين، وأنا أستاذ كبير في نظر كثيرين، وها هم يجثون بين يديّ على الركب، ومعنى هذا أن لي ميزة؛" فمثل هذه الخواطر نذير بالخطر ونافذة لزيغ الإنسان وضلاله، ومحوه وهلاكه؛ أمّا لو رأى المرء أن تحقيق مقتضى الخبرة مسؤولية حتمية تقع على عاتقه فهذه مسألة أخرى؛ لكن إن ردّ إقبال الناس عليه إلى خبرته وذكائه وفطنته، واتخذ ذلك وسيلة للتحكم فيهم، فذاك شطط بين ووقاحة مضاعفة.

التواضع سمة لازمة للفتوة

ثمة حكمة يعزوها بعضهم إلى سيدنا عليّ عليه السلام: "كُنْ بين الناس فرداً من الناس"، فمن أراد أن يكون ممثلاً حقيقياً للفتوة فعليه أن يكون فرداً من الناس حتى لا يراه الناس متميّزاً عن غيره.

وأرى أن هذا مبدأ أساس وبُعد مهم للفتوة؛ لم يُكتب لي أن أصحب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي لأرى حياته، لكن سمعت من طلابه من الرعيل الأول في الخدمة أنه ﷺ لا يميز نفسه عن طلابه ألبتة رغم أنه أستاذهم، وله يد عليهم، ويعرّف نفسه دائماً بقوله: "أخوكم"، وأشار إلى هذا في رسائل النور، فقال: "إن أساس مسلكنا ومنهجنا هو الأخوة في الله، وإن العلاقة التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية، وليست علاقة الأب بالابن ولا علاقة الشيخ بالمريد، وإن كان لا بدّ فمجرد العلاقة بالأستاذ؛ وما دام مسلكنا هو "الخليلية" فمشرّبنا إذاً "الخلّة"، والخلّة تقتضي أن يكون الأخلاء بعضهم لبعض صديقاً صدوقاً، ورفيقاً مضحياً، وأخاً شهماً غيوراً..."^(١٦).

ولنا في علاقة الرسول الأكرم ﷺ بصحابته أسوة حسنة، فكلمّا عرف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم شخصيته أكثر، ووقفوا على الحق والأدب الذي يقتضيه هذا المقام وذلك الموقف تضاعف احترامهم وتوقيرهم ولطفهم في معاملتهم له صلوات ربي وسلامه عليه، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ الذي جعله الله تعالى صرحاً للجماليات: خطيبٌ مضقّع يسحر السامعين، وإذا قرأ القرآن أثر حتى على المشركين، لكنك تراه يبين يدي رسول الله ﷺ ناكس الرأس، يقف وكأنّ على رأسه الطير، وأظن أننا لو جمعنا كلماته بين يدي رسول الله ﷺ لما زادت على مائتين.

فمن ذاك الذي حاز كلّ هذا القدر من التقدير والاحترام؟

هناك قول أثبت الأولياء صحة معناه وإن قال المحذّثون بأنه لم يثبت حديثاً: "لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلاكَ"^(١٧)؛ إنه ﷺ مُرشدٌ ومبلّغٌ لا مثيل له في

(١٦) سعيد النورسي: اللغات، اللعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٤.

(١٧) انظر: المعجلوني: كشف الخفاء، ١٩٢/٢.

شرح كتاب الكائنات وفي تفسير القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع، فتوقير الصحابة له واجبهم وحق له عليهم.

أجل، لا يكفي أن يهّب الأحياء من مجلسهم احتراماً له عندما تطأ قدمه موضعاً ما، بل إن على رميم العظام أن تهّب من مرقدها توقيراً له ﷺ؛ ورغم ذلك كان رسول الله ﷺ يقول: "لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعْظَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا"^(١٨).

وكان ﷺ يخدم نفسه بنفسه في مطعمه ومنامه ونحو ذلك، ولو أذن لما تركه أهل بيته أو الناس يقوم بشيء من ذلك أبداً، ولكن سيد الأنام عليه أفضل الصلوات والسلام لم يكن ليأذن؛ لأن عظمة الكبار في التواضع والفناء والحياء، أما التكبر والخيلاء فهو عقدة نفسية لدى الصغار، فإنه لا يليق بالعظماء استغلال توجه الناس إليهم بالتحكم فيهم.

ولم يفعل رسول الله ﷺ شيئاً مما لا يليق به قط؛ أجل، كل ما كان يفعله يليق به للغاية؛ حتى إن الملائكة الأعلى ليغبطه ويعجب لما يقوم به من أعمال.

وقصارى القول أن حياته السنية ﷺ فيها أروع نماذج الفتوة بكل أبعادها وأعماقها كما كان في مكارم الأخلاق جميعها.

مهندسو الفكر وبُناة المستقبل

سؤال: يذكر بعضُ المعلمين -أنه عدا المعاناة من الضيق المادي والمشاق- قد يتأثرون أحياناً بمشاكسات الطلاب وعزوفهم عن العلم والتعلم، فما قولكم في هذا؟

الجواب: لو وضعنا المبادئ الدينية نصب أعيننا لتبين أن التعلم والتعليم وظيفتان علويتان مرتبطتان بما وراء السموات، وفي كثير من الآيات والأحاديث الشريفة إشارات إلى أهمية العلم وحض عليه، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٣٩/٩).

وعندما تحدّث القرآن الكريم عن فضل سيدنا آدم عليه السلام على الملائكة أبرز ميزته في موهبته وقدرته على تحصيل العلم، وهذا له مغزى عميق في حديث القرآن الكريم عن أهمية العلم، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ قَالَوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٣١/٢-٣٣).

ويُفهم من هذا أن أهم خاصية فضلت الإنسان على الملائكة هي تعلُّمه الأسماء، أي استعداده وقدرته على تحصيل العلم.

وَرَثَةُ مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ

وَجَّهَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْظَارَ إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ مِيرَاثُ النُّبُوَّةِ، قَالَ:
 "إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ
 وَافِرٍ"^(١٩).

وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا"^(٢٠)، وَلَفَتْ الْأَنْظَارَ إِلَى أَهْمِيَّةِ
 الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ.

إِذَا الْمُعَلِّمُ مُمَثِّلٌ لِمَهْمَةِ سَامِيَّةٍ، وَهُوَ صَانِعُ فِكْرِهَا وَمُهَنْدِسُهَا، وَالْيَوْمَ
 يُمْكِنُ لِلْمُعَلِّمِ الَّذِي جَعَلَ هَمَّهُ دَعْوَتَهُ أَنْ يُنِيرَ عُقُولَ طُلَابِهِ وَأُرْوَاهِمَ
 بِاسْتِغْلَالِ كُلِّ إِمْكَانِيَّاتِ الْعَصْرِ، وَسَبْرِ أَغْوَارِ الْعُلُومِ، وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ
 فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ مِثْلَ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْأَحْيَاءِ وَالْفِيزِيَاءِ وَالْكِيمِيَاءِ وَالتَّشْرِيحِ
 وَالْفِسْيُولُوجِيَا وَالْجِيُولُوجِيَا؛ وَعَلَيْهِ يُقَالُ: إِنَّ التَّعْلِيمَ هُوَ أَنْسَبُ الطَّرِيقِ
 لِإِشَادَةِ الصُّرُوحِ الْعَظَامِ فِي بَابِ صِيَاعَةِ الْإِنْسَانِ؛ مِنْ أَجْلِ هَذَا أَوْلَى الْقُرْآنِ
 الْكَرِيمِ هَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ لِلتَّعْلِيمِ، وَأَكْثَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِهِ عَنْ
 هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَكُلٌّ مِنْ يَنْشُدُ النِّفْعَ لَوْطَنِهِ وَأُمَّتِهِ وَالْبَشَرِيَّةَ جَمْعَاءَ عَلَيْهِ أَنْ
 يَتَحَمَّلَ كُلَّ الْمَشَقَّاتِ وَأَنْ يَبْذُلَ وَسْعَهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ
 يَسْتَخْدِمَ هَذِهِ الْأَدَاةَ النَّافِعَةَ بِكُلِّ قُوَّةٍ.

سَاحَةُ تَأْثِيرٍ تَمْتَدُّ مِنَ الطَّالِبِ إِلَى بَيْتِهِ

نَعَمْ لَا يُعْتَدُ شَرْعًا بِشَهَادَةِ الْأَطْفَالِ لَكِنْهَا نَفْسِيًّا هِيَ أَمْضَى الشَّهَادَاتِ،
 فَهَمَّ إِنْ قَالُوا صُدِّقُوا، وَالْمِثْلُ التَّرْكِي يَقُولُ: "سَلِ الْطِفْلَ"؛ فَإِذَا لَيْسَ الطَّالِبُ
 هُوَ الْمُخَاطَبُ الْوَحِيدُ لِلْمُعَلِّمِينَ، لِأَنَّ لِكُلِّ طَالِبٍ أَقْرَبَاءَ كَأَصُولِهِ وَحَوَاشِيهِ،

(١٩) سنن أبي داود، العلم، ١، سنن الترمذي، العلم، ١٩.

(٢٠) سنن ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

وعندما يرجع من المدرسة يقصّ عليهم ما جرى فيها مع معلّمه، وكيفما يفعل المدرّس في تصرفاته وأخلاقه يروي الطفل لعائلته، فيقول عن معلم أحبه وتعلّق به: إن معلّمنا يعاملنا بأخلاق سامية، يسمع شكوانا، ويحلّ مشكلاتنا، فإن حزنا سرّى عنا وأذهب كلّ همومنا وغمومنا؛ وبهذا يحسن أولياء الأمور الظنّ بالمعلّم، وإن استطاع المعلّم اقتناص زيارة أولياء الأمور أو مناسبات أخرى لبناء حوار بناء معهم صار الطلبة بذلك قنوات لشبكة علاقات بعدّة عائلات؛ وبذلك يمكن أن تصل عناية المعلم بالطالب ورعايته له إلى أسرة الطالب أيضًا، بل إلى كل ذي قرى بهذه الأسرة، فتتسع مساحة تأثيره.

وأرى أنّ مهمة كهذه لها هذا القدر من المكتسبات جدية بأن يقوم بها الفرد مهما كانت المشاق والعقبات، وبأن يكتفي بما يسد الرمق إن لزم ذلك، وألا يرى من العقبات المادية كضعف الراتب مشكلةً تشيه عن أداء رسالته، فالمال ليس ركناً في كل شيء، بل ربما كان أشد الناس فقرًا على وجه البسيطة هم الأنبياء، ومع ذلك تربّعوا في قلوب الناس، ووجهوهم إلى الخير، ووهبوا للعالم كلها حياة جديدة، ولا أقصد أن يكون الفقر المصطنع وسامًا للمعلّمين، بل أريد أن أبين أن المال ليس كلّ شيء، وأن لدينا أنواعًا أخرى من الثراء مثل: كسب القلوب، والنفوذ إلى الأرواح، وتوجيه الناس نحو غايات سامية.

ولقد حاز التعليم أهمية بالغة خاصة اليوم؛ إذ حوّلت الأنشطة التعليمية العظيمة العالم قرية صغيرة؛ هذا ويلاحظ أن من المعلّمين من يُكره الطلاب على أشياء دون اكتراث لردود أفعالهم، أما أنتم فعليكم أن تجتهدوا بالاعتماد على الودّ والطف للانطلاق برحلات قلبية إلى قلوب الناس، فالتعليم طاقة كامنة وراء كل ما تقومون به.

ومن الضروري تشجيع الطلاب على كل المستويات لسلوك هذا السبيل، وتحفيزهم على التعليم؛ وليس لكلامي هذا مفهوم مخالفة، فمثل التعليم العناية بجميع المهن التي تنهض بالمجتمع وتُنْعِشُهُ، فلا يجوز إفساح المجال لوقوع أي ثغرة أو قصور في مناحي الحياة المختلفة، ولكن لا ننسى أنَّ للتعليم مكانةً خاصةً في إحياء المجتمع.

كسبُ قلوب تدعو لنا طوال العمر

أما مسألة مشاكسات الطلاب وعدم مبالاتهم بالتعلُّم فلنُعترف بدايةً أنَّ مثل ذلك قد يصدر عن أي طالب، فالجانب الأهم في التعليم هو الاعتراف بمثل هذه المشكلات وتحملها والصبر عليها، ها أنتم ترون النَّحَاتَ يبذل جهداً كبيراً حتى يصنع من الحجر القاسي الصلد تمثالاً، ويتصبب عرقاً ويتعب ليجعل هذا الحجر في قالبٍ ما بعد نحته وتشكيله؛ وليست مهمة المعلِّم بأيسر من ذلك، فهو يحاول أن يعالج هذا الإنسان الخام، ويحت كل أطرافه المدببة ويشكِّله حتى يصل به إلى أن يكون إنساناً حقيقياً، أو قل: إنه كالصائغ يعالج الجواهر المكنونة لدى الإنسان ويعمل على إقامة صرح روحه؛ أجل، إنه مثل الفنان يعيد صياغة الإنسان من جديد.

ورغم هذا كله قد يوجد طلابٌ يخلقون المشكلات ويُخلِّون بالنظام العام، فيلزم عندئذ مقابلة أولياء الأمور وتطبيق برامج بديلة للتوجيه والإرشاد؛ وذلك للحيلولة دون إضرارهم بمن حولهم، وللحفاظ عليهم ما أمكن، مثال ذلك استدعاء أولياء الأمور إلى المدرسة ليشاهدوا أبناءهم عن بعد، ثم نعمل معاً لإيجاد سبيلٍ شَتَّى للعلاج بالتشاور بين المعلِّم وولي الأمر.

لقد أخرج الرسول الأكرم محمد ﷺ معلِّمين للحضارة الإنسانية من بين أشدِّ الناس همجية وبداعة وتعصُّبا لعاداتهم واختلافاً لأعداء يسفكون بها الدماء؛ وبذلك أصبح ﷺ حبيباً للقلوب، حتى إن منهم مَنْ دخل على سيدنا رسول الله ﷺ وهو بين صحابته، وصاح قائلاً: "أيكم ابنُ عبد المطلب؟"، ثم جاء اليوم الذي لَان فيه قلبه وجلس في حضرته ﷺ يستمع إليه وكأن على رأسه الطير.

هذا هو أعظم تعليم وإرشاد؛ أجل، إن الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام قد جعلوا من أشدِّ الناس همجية وبداعة أناساً صديقيين وتيجاناً فوق رؤوسنا؛ فمن الممكن أن يقع مثل هذا في كل وقت وحين؛ وعلى ذلك فمن المفترض أن يكابد المعلِّم ويعاني ويتكدَّر، ولكنه في النهاية سيكسب أناساً يدعون له طوال العمر، وسيُكتب له في سجل حسناته مثل حسناتهم، فالظفر بنتيجة كهذه تستحق منا مزيداً من التحمل أيّاً كان قدره.

وقد لا يستطيع المعلِّم أن يصل بطلابه إلى المستوى المنشود، وقد لا يفوز بجميع الطلاب الذين مدَّ لهم يد العون، فكم من الناس انفضَّ عن أعظم المرشدين الممتازين فخابوا وخسروا، فما على المعلِّم إلا أن يبذل ما في وسعه في هذا السبيل، ثم يفوِّض الأمر إلى الله باري الثمرة، وليعلِّم أنَّ المعلِّم لو عدَّ هذه المهمة أولى أولوياته، ثم انشغل بهذه الوظيفة وتجرَّع الآلام كي يوفيهها حقها، فلا جرم أن الله تعالى لن يخيِّب سعيه أبداً، وسيتمدده بفضلته وإحسانه، ويلهمه سبل الحل والرَّشاد.

ما من معضلة إلا ويحلُّها لسانُ الحال

مسألة مهمة لا ينبغي أن نغفلها في التعليم، ألا وهي أثر الأسوة الحسنة ولسان الحال في إرشاد الطلاب وتوجيههم، فإن الإنسان ينزع إلى الشر، ويجنح إلى الشهوات وسيئ الأخلاق من غضب وحقد وعداوة

واعتداء على الحقوق، فمن المفترض أن ينحدر إلى أسفل سافلين إن أسلمناه لأهوائه؛ ولا يتأتى قمع أهوائه وتنمية ميوله الطيبة إلا على يد مرشد يُقتدى به في سلوكياته وأفعاله.

وأخيراً أريد أن أبوح ببعض مشاعري، وأرجو ألا يُعد هذا تفاخراً: أنا ابن الرابعة والسبعين لو عُهد إليّ بوظيفة في كوشي الخشبي الصغير في "كستانه بازاري"^(٢١) لهرولت لأدائها، ولعلها في نظر بعضكم أمر صغير يسير، لكنني لا ولن أعدها كذلك ألبتة، حتى إن بعض الناس قد يعد مطالعتي مع الإخوة هنا وانشغالي بالطلاب أمراً يسيراً صغيراً، بيد أنه عندي أعظم الوظائف التي تأخذ بيد الإنسان وتبلغ به أعلى الدرجات.

وحمادى القول أن على الإنسان أن يقدر التعليم قدره ويجلّه، ويدرك أنه مهمة الأنبياء، فالحقيقة أنه من المتعذر أن نجد بين من يخدمون الأمة إنساناً يعدل المعلم؛ لأن خدمة الناس واستثمارهم أعلى من كل شيء، فلا شيء يعدل إرشاد بضعة أشخاص وتوجيههم حتى وإن كنتَ بستانياً لكل حدائق العالم وبساتينه، والسلطنة أيضاً لا تعدل الرقيّ بالناس إلى مستوى الإنسانية، ألم يتربّ الحُكَّامُ العظام على أيدي معلّمين عظام؟

وهكذا فبعد أن نضع هذا الأمر نصب أعيننا نقول: إن أقرب الناس إلى الله ﷻ هم المعلّمون الذين نذروا حياتهم لنفع غيرهم؛ لأن هؤلاء هم من يُعيدون صياغة الإنسان، ويبنون المجتمع، ويشيدون الواقع، ويصنعون المستقبل.

(٢١) لما عمل المؤلف مديراً ومدرّساً في "كستانه بازاري" -معهد لإعداد طلاب العلوم الشرعية- أقام في كوشي صغير جداً بجانب المعهد.

التعفف والاستغناء طوال العمر

سؤال: يُقال: إن التعفف والاستغناء من أهم مقومات روح التفاني، فما الأمور التي تجب رعايتها ليتمكن المرء من المحافظة على خلق التعفف والاستغناء في مراحل حياته كلها؟

الجواب: أنوّه بدايةً أنّ الغنى في الاستغناء بالحقّ عن الخلق، بل إن من استغنى بوسعه أن يتحدّى الخلق جميعاً بهذا الخلق؛ فمن يخلّق بروح الاستغناء يضع بينه وبين الأهواء والتشوفات المادية والمعنوية كافة حجاباً ويغلّق الأبواب ويوصدها، فلا تذله المنة، ولا يشعر بالامتنان لأحد سوى الله تعالى.

الذل والخنوع من أجل المنصب

علينا ألا ننسى أن الاستغناء ليس سلوكاً مقصوداً على موقفنا من المال والملك والثروة الحقيرة، بل هو أيضاً الثبات والصمود في وجه المقام والمنصب والتقدير والتهليل وشتى أنواع الرغبات والأهواء النفسية؛ فلو عزم عليك الناس بإصرار أن تتقلّد منصباً أو رتبة كأن تكون مديراً أو مستشاراً أو نائباً في مجلس الشعب، فحاسب نفسك وقل لها: "يا تُرى هل يمكنني أن أحافظ على روح الاستغناء وأنا في هذا المنصب؟!".

أي حاسبها قائلاً: "ما الدافع للحصول على هذا المنصب، أهو الهوى أم السعي في خدمة الأمة لنيل رضا المولى ﷺ؟"؛ فإن تحكمت النفسانية بالنفس فعليك أن تقاوم ذلك الهوى.

ورُبَّ قائل: "لو تعين علينا جميعاً الاستغناء عن بعض الوظائف والمناصب فستظل شاغرة؟!"

وجوابه أنه لو وُجد كفاء لهذا المنصب وقَدِّمَتَ نَفْسُكَ فهذا يثير الضغائن والحسد، ويفضي إلى النزاع والشقاق، فلو اجتمع عشرة أئمة أَكْفَاءَ في مسجد، ثم تقدمتهم إلى المحراب، فهذا ضرره أكبر من نفعه؛ لأنه لا بد أن أحدهم سيؤم الجماعة.

وأمرٌ آخر ذكره بديع الزمان سعيد النورسي: "على المرء أن يؤثر التبعية على المتبوعة التي تنذر بالخطر وتقضي تحمّل المسؤولية". أجل، إن الإمامة أمرها جلل؛ فالإمام يتحمل تبعة المأمومين جميعاً، فإذا أخطأ تحمّل تبعة الجماعة كلها، ومثل هذا لو أنّ محافظاً قصّر لَحْمَلٍ وزير أبناء المحافظة جميعاً، وكذا لو أن الرئيس ارتكب خطأ يضرّ بالشعب، فسيرحل إلى الآخرة وهو محمّل بأوزار الشعب كله.

إذاً على المرء أن يُؤثّر دور الناخب لا المنتخب؛ لأن الخطأ يدين كلّ من يحرصون على الفوز بالانتخابات، أما من لم تهّمه نفسه وسعى ليتقلّد الأكلأ أيّاً كان فقلّما يُخطِئ.

أَصْعَبُ الاستغناء

ذروة الاستغناء في هجر المرء لمدح النفس، وتذمُّره إذا مدحه الناس؛ أجل، على المؤمن الكامل أن تستشعر أعماقه أنّ المدح قدح وإن راق لنفسه الأمانة، بل عليه أن يسأل نفسه قائلاً: "إنما أبتغي الجزاء في الآخرة،

فلماذا يقدّمه الناس إليّ الآن، يا ترى هل أنا من دفعهم إلى ذلك؟"، ثم يؤثر سبيل العجز والفقر، فيقول: "اللهم أنسني نفسي، وكرّه إليّ الحديث عنها".

قد يستغني الإنسان عن المال والملك، بل قد يُعرض عما يُعرض عليه من مناصب كأن يكون واليًا أو محافظًا أو نائبًا في مجلس الشعب أو مستشارًا، ولكن الاستغناء عن التقدير والتبجيل أصعب من هذا كلّهُ؛ فمن الأهمية بمكان أن يبدأ الإنسان فيتخذ موقفًا حازمًا من كلّ ما يُوجّه إليه من تقدير وحفاوة، وألا يوارى الباب لهذا الضرب من الآمال والتشوفات، وأن يحثو التراب في أفواه المدّاحين والحامدين حتى يغلق المنافذ دون هذا السبيل.

تربويّون مجهولون تواروا وراء خشبة المسرح

إنني أعدّ أصدقاءنا التربويين الذين يعملون في مجال التعليم والتربية في كثير من الدول من أعظم الناس تضحيةً في عصرنا؛ لأنهم انفتحوا على العالم في ظروف صعبة، ورَبّوا طلابًا سيخدمون للحبّ والإنسانية؛ ثم آثروا البقاء وراء خشبة المسرح في حفلات يُعرض فيها شيء من ثمرة جهودهم، واكتفوا بتصفيق الملايين وتهليلهم لطلابٍ أشرفوا على تربيتهم وتعليمهم؛ اللهم لا تخبّ ظننا فيهم، فإنّا لنرجو أن يواظبوا على أداء أعمالهم بصدق وإخلاص كما عهدناهم.

ورأى بعض الفضلاء العارفين بالجميل تكريمهم وشكرهم إذ إنهم مصدر هذا الأمر ومهندسوه، بيد أنهم آثروا الخفاء والتوازي وراء خشبة المسرح؛ والحقُّ أن هذا هو السلوك الأمثل الذي كان عليهم القيام به.

أجل، على مَنْ ينثر البذور في التراب أن يرحل إلى الآخرة مجهولاً متوارياً، ولا يشغلن نفسه بمن يحصد سنابلها ولا بمن يدرسها، ولا بمن يأتي بالغلل إلى الجرين، بل ينبغي ألا يتعلّق قلبه برؤية الثمرة.

أجل، إنّ أسمى أمانينا -نحن المؤمنين- أن تعلق كلمة الله ﷻ وترفرف خفاقة في أنحاء العالم كافة، وأن تصبح حقيقة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" هي صدى القلوب المؤمنة وأنفاسها في كلّ مكان؛ ولو كانت لنا ألف روح لما تأخرنا في التضحية بها في سبيل تحقيق هذه الغاية؛ حتى إني -أنا الفقير البائس- أيضاً لأعد هذه الغاية أعظم أمنية ورغبة في الحياة، وأحياناً تفيض عيناى بالدموع وأنا أقول: ليت صدى "لا إله إلا الله محمد رسول الله" يتردّد في كلّ مكان.

ورغم هذا الشوق والحماس فإنك إن أسهمت في تحقيق هذه الغاية المثلى ولو بقدر ضئيل، ولحقت بهذه القافلة المباركة، فأرى أن عليك أن تقول: "واشوقاه إلى مجيء ذلك اليوم، يوم نمو ثمرات هذه الجهود وظهورها، وبعداً ثم بعداً للتصفيق والتهليل والتقدير والتبجيل من مدّاحين يقولون: "كانت لهذا الرجل يدٌ في هذا الأمر، حسبي أن أشاهد -وأنا في العالم الآخر- هذه الغاية السامية عالية خفاقة في أنحاء العالم كافة".

بل على المرء أن يتمثل شعور الاستغناء الحقيقي، وأن يسعى إلى إدراك أفعه، فيقول: "قد تفرز مشاركتي في هذا الأمر مشكلات وعثرات، فالأفضل أن أخرج من هذه الدنيا وأتوارى تحت التراب، وأشاهد -وأنا في العالم الآخر- تصريف الأمور الربانية".

الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله

أهم وسيلة للحفاظ على روح الاستغناء هي التخلص بخلق "الإيثار"؛

فعلى إخواننا في حركة المتطوعين أن يتحلوا بهذا الخلق، حتى إن عليهم أن لا يكتفوا بالتضحيات المادية كالإطعام والسُّقيا والتبرع بالراتب، بل وعليهم أن يؤثروا الآخرين بالفيوضات المعنوية؛ أجل، عليهم أن يروا غيرهم أجدر منهم بالمقامات المعنوية، وأليق منهم بالكرامات؛ وعليهم ألا يتوجَّهوا إلا إلى ربِّهم ويؤثروا رضاه على كل شيء، ويقولوا دائماً: "حسبنا الله ونعم الوكيل".

هذا هو روح الإيثار وخلق الاستغناء بمعناه الحقيقي، وإننا لأحوج ما نكون إلى هذا الخلق في أيامنا هذه.

والحاصل أن على هؤلاء أن يُعرضوا عن المكاسب الدنيوية من مقام ومنصب وتقدير وتبجيل وتهليل، بل وعليهم أن يُعرضوا في هذا السبيل عن المقامات الأخروية - من وجه - وألا يتشوفوا إليها، وأن ينتظروا النعم الأخروية من فضل الله وكرمه وسعة رحمته؛ إذ إنه لا سبيل للحصول على أي قيمة إلا بفضل من الله وإحسانٍ منه ﷻ، فلن يدخل أحد الجنة أو ينجو من النار بنفسه؛ إن ذلك محض فضل وإحسان ورحمة من الله ﷻ، فإن أعرض الإنسان عن كل شيء سواه فتح الله له الأبواب جميعها؛ نعم، أوصدوا الأبواب دون الدنيا تجدوا أن الله ﷻ قد أبدلكم ألف بابٍ بالباب الذي أوصدتموه، لأنه سبحانه بيده مفاتيح كل شيء.

أجل، لو أردتم أن تتفتح أبواب الإحسان والرضا والمدد الرباني فأوصدوا الأبواب دون كل الآمال الدنيوية.